اللقاء الفريد
بين
علماء العرب
و
علماء الغرب

حى بن يقظان
يقابل
روبنسون كروزو
فى جزيرة الوحدة



تأليف : عبد التواب يوسف

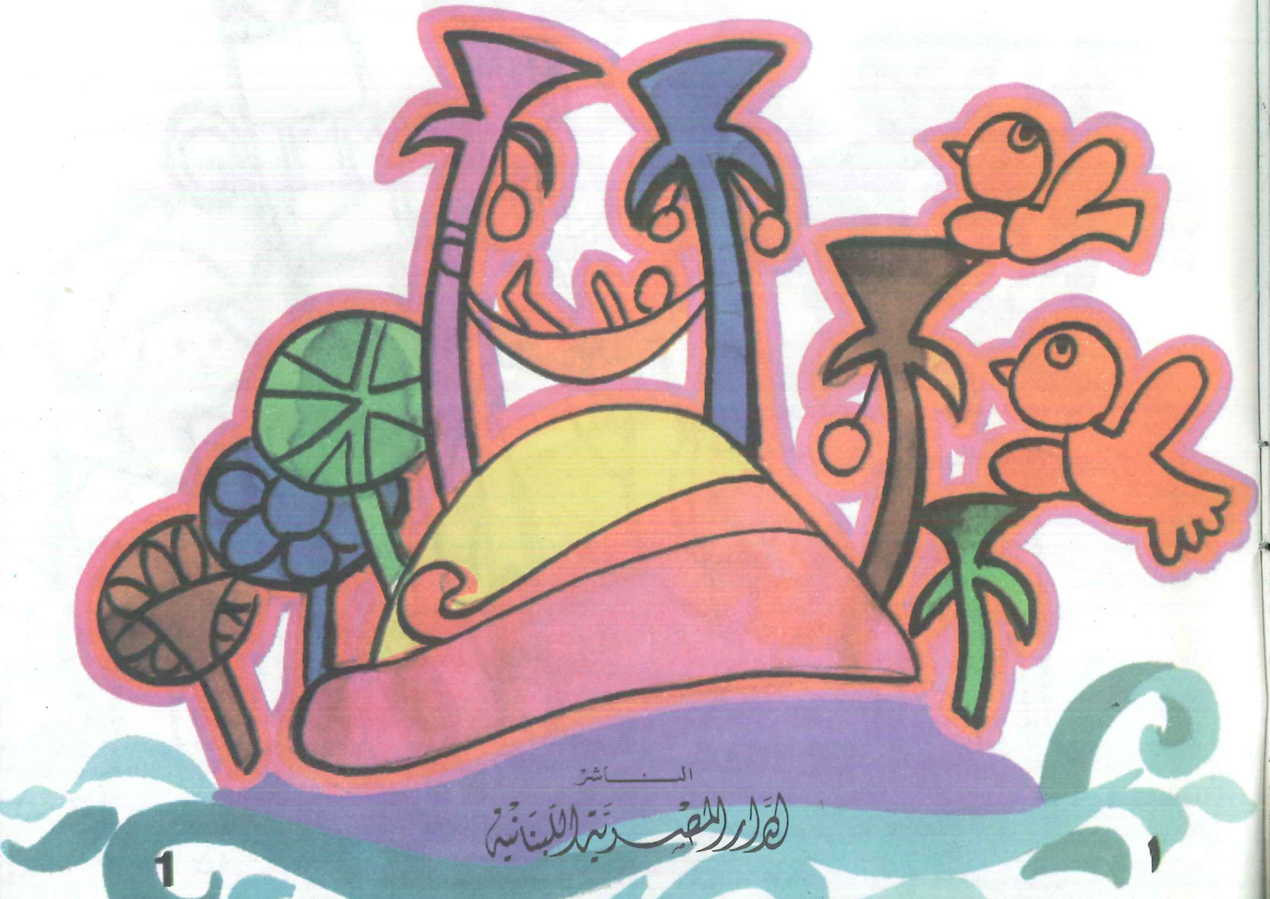
رسوم : فريدة عويس

الدار المصرية اللبنانية

اللقاء الفريد
بين
علماء العرب
و
علماء الغرب

حى بن يقظان
يقابل
روبنسون كروزو
فى جزيرة الوحدة

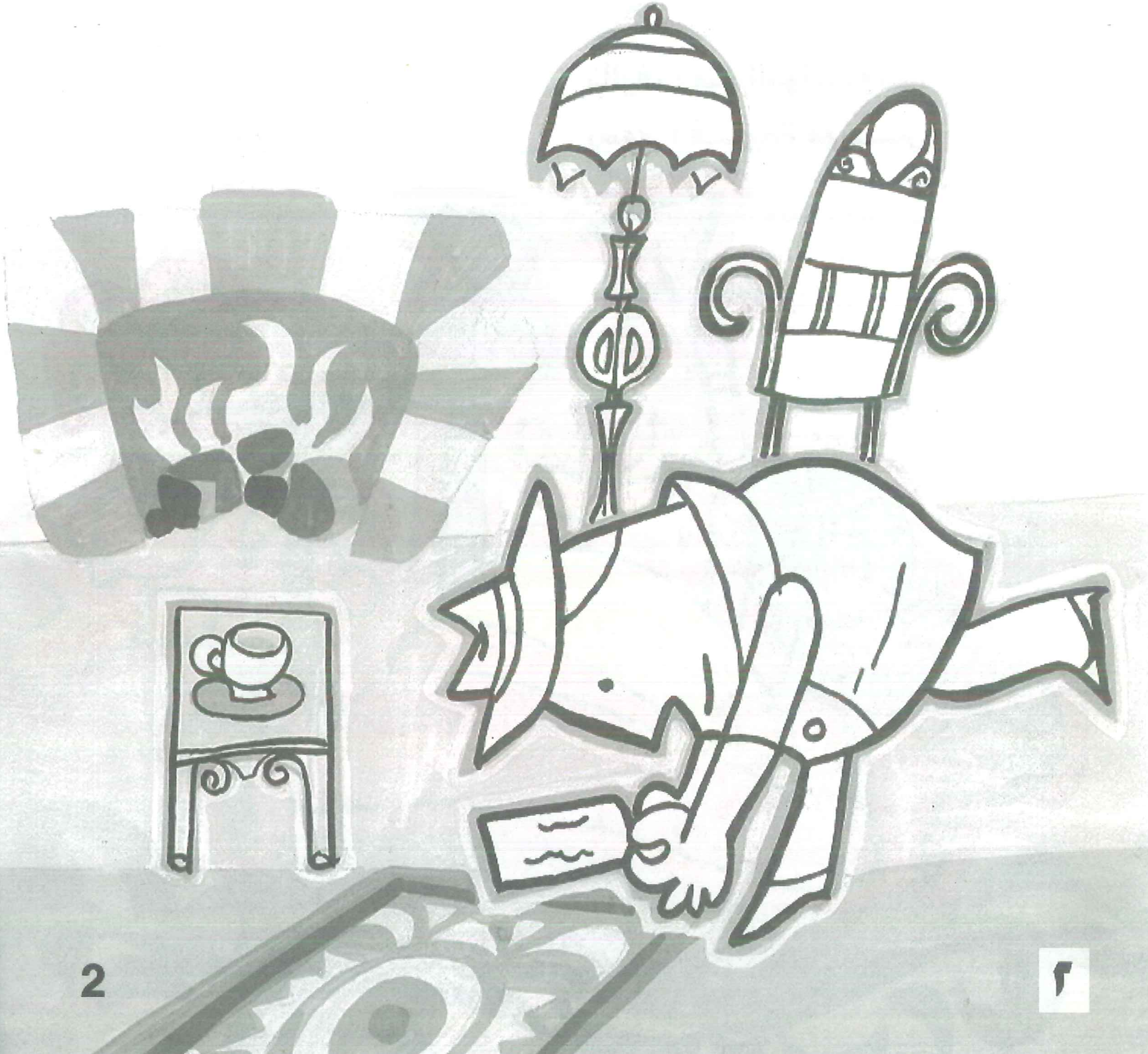
تأليف : عبد التواب يوسف
رسوم : فـريدة عويـس



الناشر
الدار المصرية اللبنانية

ذات ليلة من ليالى شتاء عام ١٧١٩ .. كان الكاتب الإنجليزى المعروف « دانييل ديفو » قد سهر طويلا يكتب قصته الشهيرة « روبنسون كروزو » عندما داعب النعاس عينيه .. ورأى فيما يرى النائم بطاقة تُلْقَى من تحت باب غرفته ، وطَرْقَة خفيفة تطرقت إلى أذنيه .. قام ليلتقط البطاقة .. كان عليها :

ابن طفيل
عالم فلكى .. رياضى .. طبيب .. فيلسوف .. أديب .. كاتب .. وزير الأندلس .



سارع « ديفو » بفتح الباب وهو يهتف :

– « أهلًا ومرحبًا بالعربى العظيم !! تفضل .. مَنْ معك ؟! .. آه .. عرفته .. إنه « حَيُّ بن يقظان » !

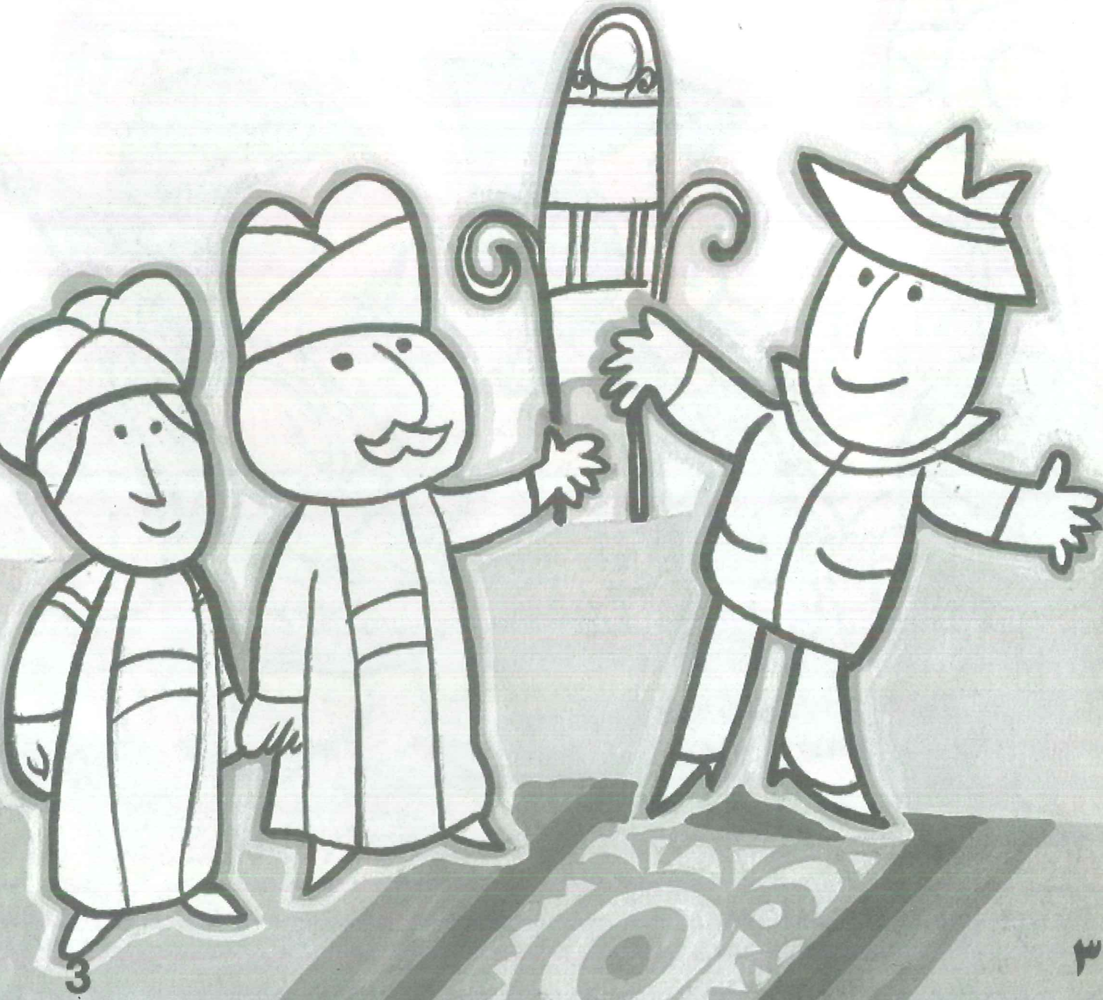
دخل ابن طُفَيْل . ومِنْ ورائه حَىُّ بن يقظان .. وارتفع صوت ابن طُفيل يسأل « ديفو » :

– هل أنت وحدك ؟!

– لا بالطبع .. معى « روبنسون كروزو » ! .. وبعد قليل سيصل « جُمعة » .

ابتسم ابن « طُفيل » وقال :

– ويصل أيضًا « آسال » ، صديق ابن يقظان !! .



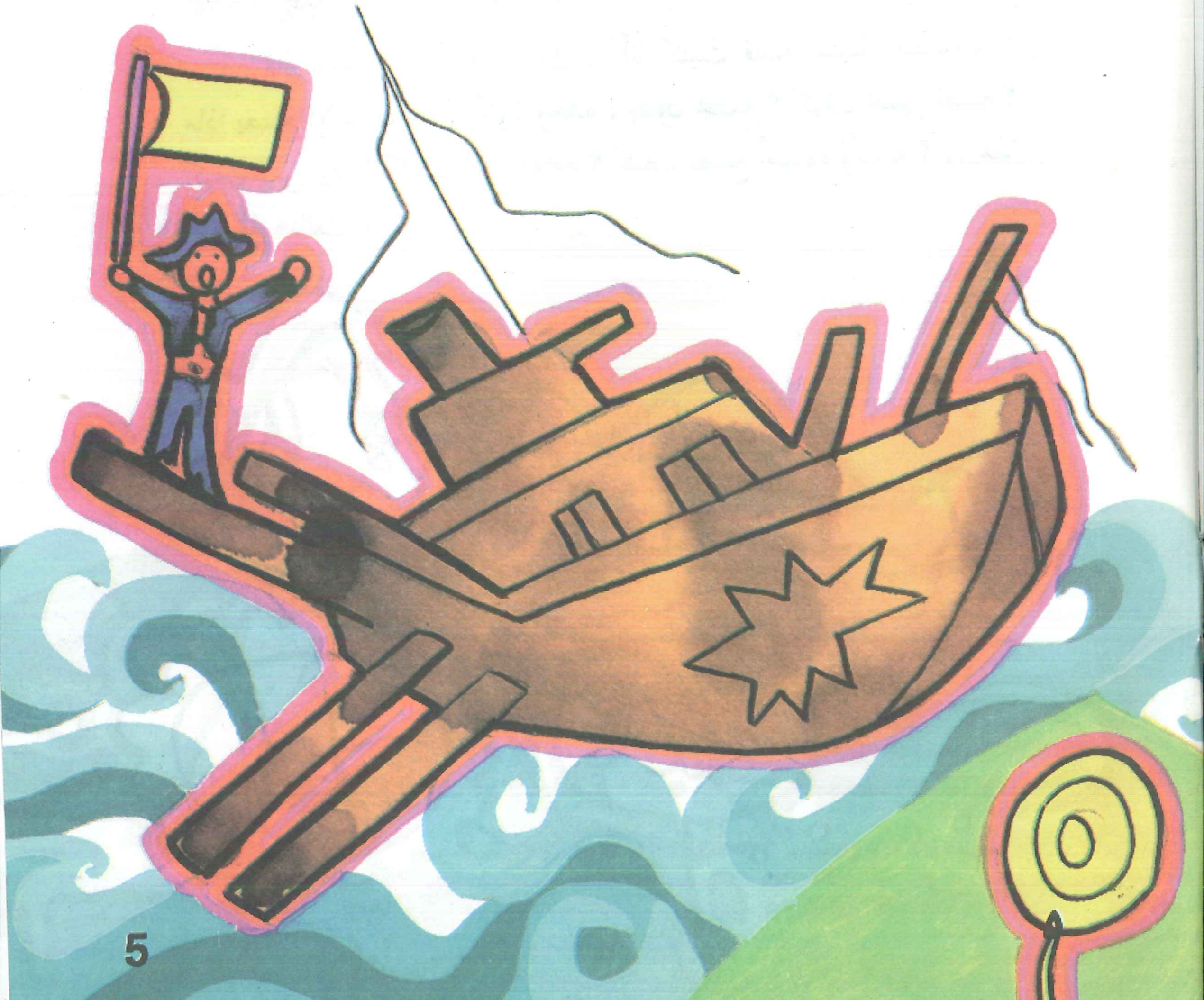
لقد التقى الأربعة لأول مرة .. مؤلفان .. وشخصيتان من عالمٍ ابتكرهما كل منهما .

• العالم الأندلسى العربى ابن طُفيل الذى كتب قصة « حى بن يقظان » ، تنبهوا لهذا العنوان الطريف ، فمعناه كبير .. وقد كتب هذه القصة فى القرن الثانى عشر ، وترجمت إلى لغات عدة ، منها « اللاتينية ، والإنجليزية ، والهولندية ، والألمانية ، والفرنسية ، والأسبانية ، والفارسية ، والروسية ، والإيطالية » ..

وتوفى ابن طُفيل عام ١١٨٥ ودُفن فى مراكش .



• الكاتب الإنجليزى « دانييل ديفو » ولد عام ١٦٦٠ وتوفى عام ١٧٣١ .. وقد ألف نحو ٤٠٠ كتاب ، أهمها « روبنسون كروزو » الذى تحطمت سفينته ، ولجأ إلى جزيرة عاش فيها وحده - كما عاش حى بن يقظان - ومارس الحياة ، وتغلب على الصعوبات بذكائه وخبرته إلى أن وصل جمعة ، وشاركه الحياة فى الجزيرة بعض الوقت . مثلما وصل « آسال » إلى سيلان ، حيث التقى مع حى بن يقظان .

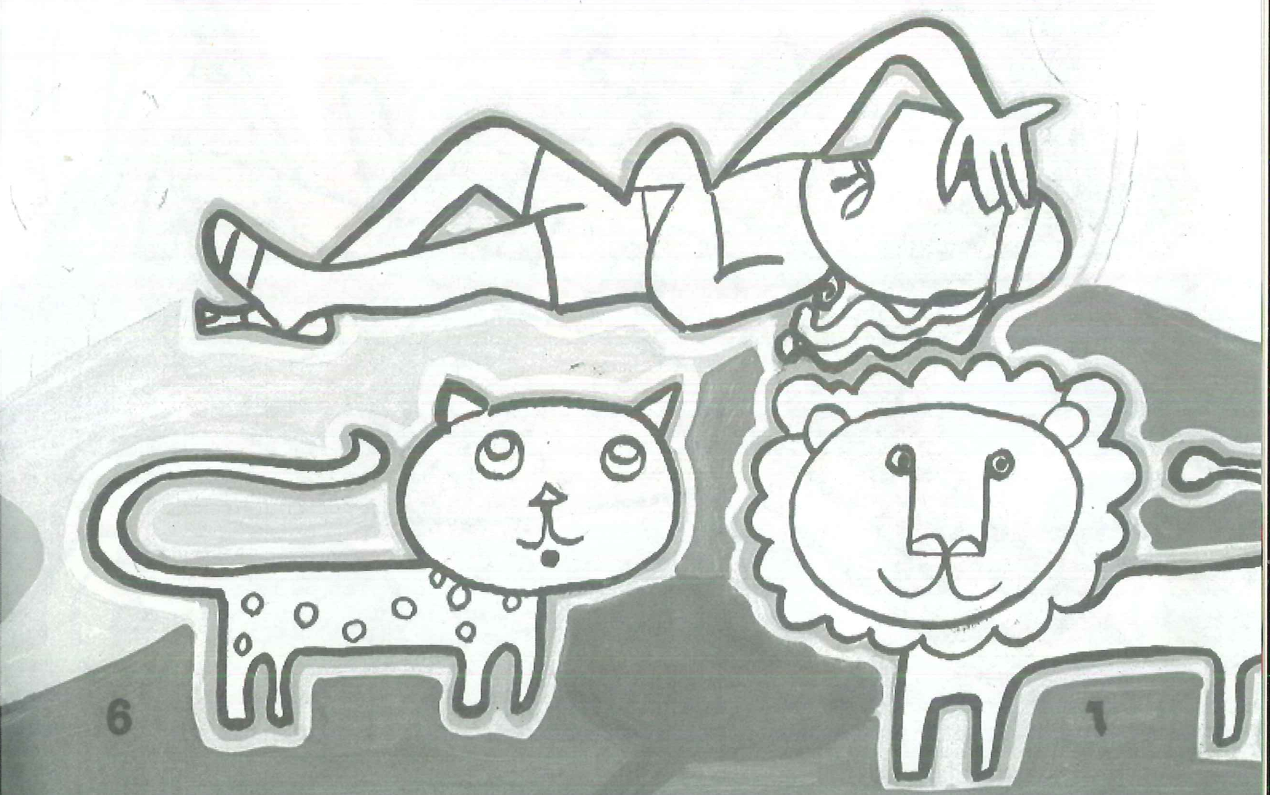


جلس « ابن طفيل » بعد أن رحب به « ديفو » ، وتبادلا التحية ، ثم سأل ابن طفيل : ياسيد « ديفو » ، هل قرأت قصتى قبل أن تكتب قصتك « روبنسون كروزو » أم هو توارد خواطر .. أى أن خواطرى وأفكارى كانت مثل خواطرك وأفكارك مصادفة !؟ .

ابتسم « ديفو » وقال : « لقد سبقتنى للفكرة بنحو ستمائة سنة .. وأنا أحاول تقليدك لا أكثر ولا أقل .. » .

قال ابن طفيل : « مما لا شك فيه أن قصتك « روبنسون كروزو » من أجمل القصص الإنسانية المثيرة ، وقد لَقِيَتْ شهرة عظيمة بعد أن كتبتَها ، ونشرتَها على الناس فى قصتى « حى بن يقظان » ، ولكنى كُنْتُ أريد أن أقول شيئاً آخر .. » .

قال ديفو : « أعرف ذلك .. أنا كتبتُ قصة بسيطة مضمونها : ماذا يصنع الإنسان حين يكون وحده ، بدون مجتمع ؟ كيف يحمى نفسه ؟ كيف يبنى بيته ؟ كيف يجد طعامه ؟ كيف يصنع أشياءه وأدواته ؟ .. هذا كل ما هنالك » .



ابتسم ابن طفيل وقال :

« لَمْ أُرِدْ أن أقول هذا » . « روبنسون كروزو » عندك رجل له ماضٍ .. كان شابًّا حين غرقت سفينته ، أمَّا حَىُّ بن يقظان فقد وُجِدَ فى جزيرة سيلان ونشأ فيها ، معزولا عن الناس ، ترضعه ظَبْيَةٌ وتربيه .. وتدرج فى المشى .. وقلد أصوات الحيوانات والطيور .. وحاكاها فى كثير من تصرفاتها ، لكن عندما كبر وترعرع بدأ يستخدم عقله .

ونظر ابن طفيل إلى حى بن يقظان الذى أكمل كلام أستاذه قائلًا : واستطعتُ بالملاحظة ، والفكر أن أحصل على كل احتياجاتى من غذاء ، وكساء ، ومعرفة ، بدأت أتحسس حياتى من الظلام الكامل إلى أعلى حقيقة



يصل إليها الإنسان .. ألا وهى وجود الله .. يدركها الإنسان وحده بنفسه ، وبعقله !

ذهل « ديفو » ودهش « كروزو » .. إن حكايتهما مسلية ، ولكنها ليست عظيمة وعميقة بهذه الصورة .. وأضاف ابن طفيل :

– ثم أخذتُ حى بن يقظان إلى الجزيرة المجاورة لأنقد مجتمع الناس وأبين فساد نُظُمهم فى وضع المجتمع والحياة ، كل همهم ، الرغبة فى الثواب والخوف من العقاب ، الأخلاق عندى مسألة طبيعية ، فطرية ، وعقلية .

وأكمل حى بن يقظان كلامِ ابن طفيل ، فقال :

– « إنها – أى الأخلاق – مثل الفاكهة ، تخرج من زهرتها ، ثم



تنمو ، وتنضج ، ثم تخرج منها بذرة ، لكى تنمو منها شجرة جديدة .. وهكذا .. وإذا قطف إنسان ثمرة قبل نُضْجها يُعَدُّ عمله هذا بعيدًا عن الأخلاق .. والإنسان بذلك مسئول عن الخطأ ، ويجب أن يزيل أسباب الفساد .. » .

قال ابن طفيل : « الخُلُق هو أن تجرى الطبيعة فى كل شىء مجراها » .

وطالت الجلسة بين ابن طفيل ودانييل ديفو ، وطال بينهما الحديث وامتد ، واشترك فيه حى بن يقظان ثم اسال بعد وصولهما .. كما شارك روبنسون كروزو أيضاً ، وجمعة عنه ما لَحِقَا بهم ..



- ٣ -

كان دانييل ديفو ، ومعه روبنسون كروزو ، يستمعان إلى ابن طفيل ، وإلى حى بن يقظان فى دهشة كبيرة .. ماكانا يتصوران أن قصتهما عميقة إلى هذا الحد ، ورائعة إلى هذه الدرجة . وسأل دانييل ديفو ضيفة ابن طفيل :

- إننى فى دهشة ، لماذا حققت قصتى « روبنسون كروزو » شهرة أكبر من قصتك العظيمة ؟

- الناس شدتهم المغامرة المثيرة فى حكايتك ، نعم ، نحن نحكى عن شخص عاش وحده فى جزيرة ، وما أكثر الناس الذين يعيشون « وحدهم » وسط الناس .. عدد كبير من البشر تتقطع صلاتهم بالآخرين ، ويحس كل



واحد منهم أنه « روبنسون كروزو » أو « حى بن يقظان » .. ويبدو أننى أرهقت الناس بالتفكير ، ولم أشأ الترويح عنهم وتسليتهم .

– ولكن قصتك عن ابن يقظان ممتعة ومسلية .

سادت لحظة صمت قبل أن يستأذن ابن يقظان مؤلفه ابن طفيل فى أن يقول رأيه ، فلما أَذِنَ له قال :

– أنا وُجِدْتُ فى الجزيرة وليدًا ، ورَضِيعًا ، وعشت فيها بلا خبرة سابقة .. أما شبيهى « روبنسون » فقد عَرَفَ الحياة مع الناس ، وجاء إلى جزيرته ومعه أدواته وسلاحه وثيابه ، بل ونقوده .. لماذا نقلتها من السفينة الغارقة ؟! .



ضحك « روبنسون كروزو » قائلًا : مؤلفى « دانييل ديفو » هو الذى أراد لى ذلك .. فمن يدرى ، فربما وجدت الجزيرة مأهولة بالسكان ، ويمكننى أن أستعين بالمال فيها .

ابتسم « ديفو » وقال : من البداية كنت أعرف أنك ستكون وحدك ، لكننى أردت أن أكشف للناس مدى تمسكهم بالمال والذهب ، حتى ولو فى جزيرة معزولة ، وبدون أن يكون فى قدرتك أن تنفقها .

قال ابن يقظان : أعجبتنى لفتة لطيفة ، فى قصتك ، وأعنى بذلك مافعله « روبنسون كروزو » عندما أفاق بعد وصوله للجزيرة ، ووجد نفسه مُلْقًى على الشط .. وتساءلت ساعتها : تُرى فى أى شىء يفكّر ؟.

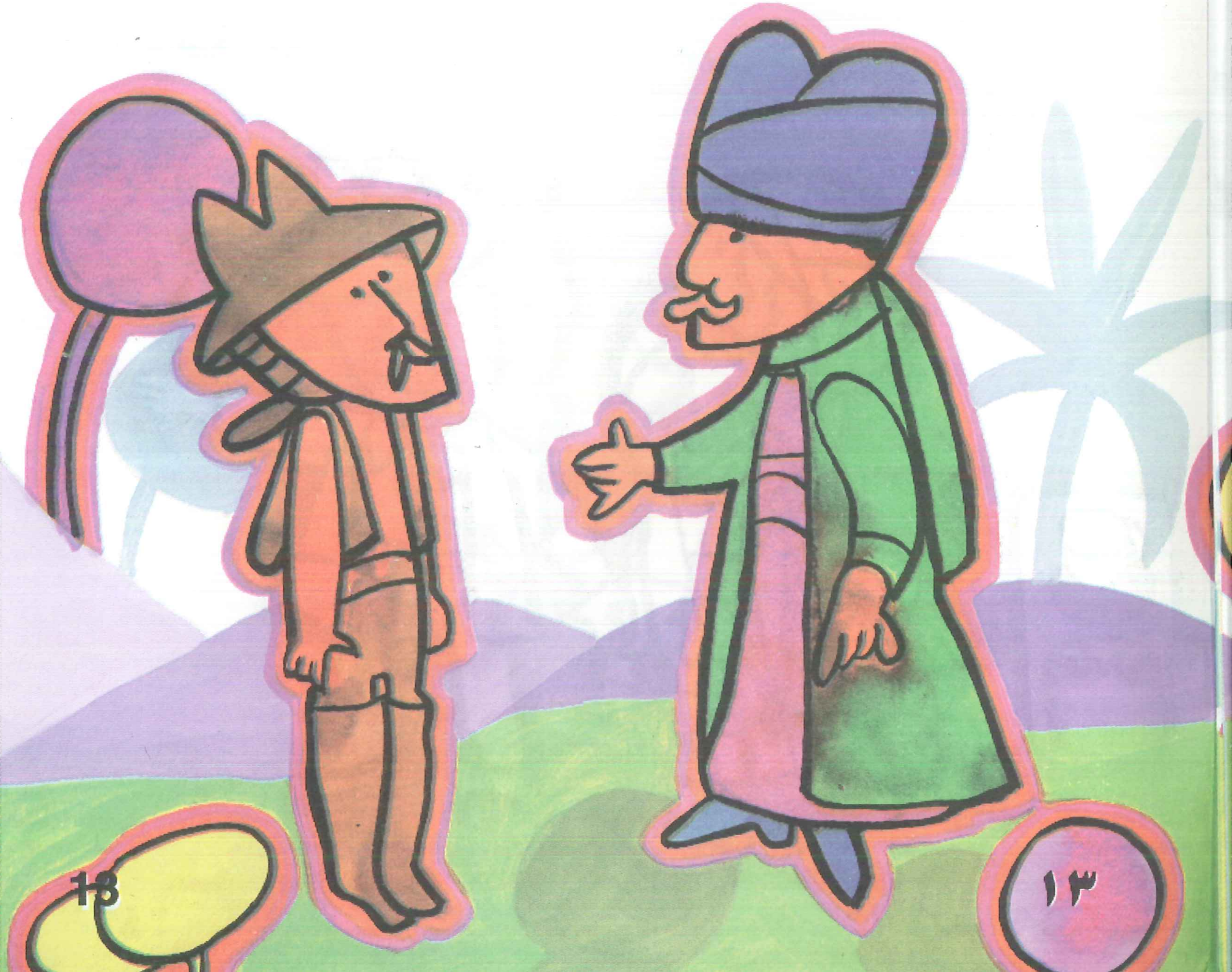


ابتسم « ديفو » : أنتم تركزون على « التفكير » ، ولهذا كان سؤالك لنفسك .

وقال روبنسون كروزو : البعض يتصور أنه كان من الضرورى أن أفكر فى الطعام .. أو الشراب أو المأوى .

قال حى بن يقظان : قبل كل ذلك كان يجب أن تشكر الله الذى نجّاك من الغرق !

رَدَّ « كروزو » : عندما أفقت كان كل الذى تسلط علىّ : أين أنا ؟! .. كان من الضرورى أن أستكشف المكان ، فقد تكون هناك حيوانات مفترسة ، أو بشر متوحشون ، أو .. كان هذا أول ما خطر فى بالى ، بعدها أفكر فى المأوى والطعام وما إلى ذلك .



من جديد ، سكت الجميع لحظة يفكرون ، ويلتقطون أنفاسهم .. بعدها نظر « دانييل ديفو » إلى « ابن طفيل » وقال :

– قرأت قصتك ، وتأثرت بها كثيرًا وأنا أكتب ، سؤالى لك : لو أننى سبقتك وكتبت « روبنسون كروزو » ، هل كنت تكتب حى بن يقظان بنفس الطريقة ؟! ابتسم ابن طفيل ، وقال : ماكان بمقدورى أن أكتب حى بن يقظان إلَّا بالطريقة التى كتبتها بها .. بل لقد كتبها بعدى ابن رُشْد ، وغيره من الفلاسفة والمفكرين ، ودارت قصصهم فى نفس المجال : التفكير فى الله سبحانه وتعالى ، وليس فى أمور الدنيا ..

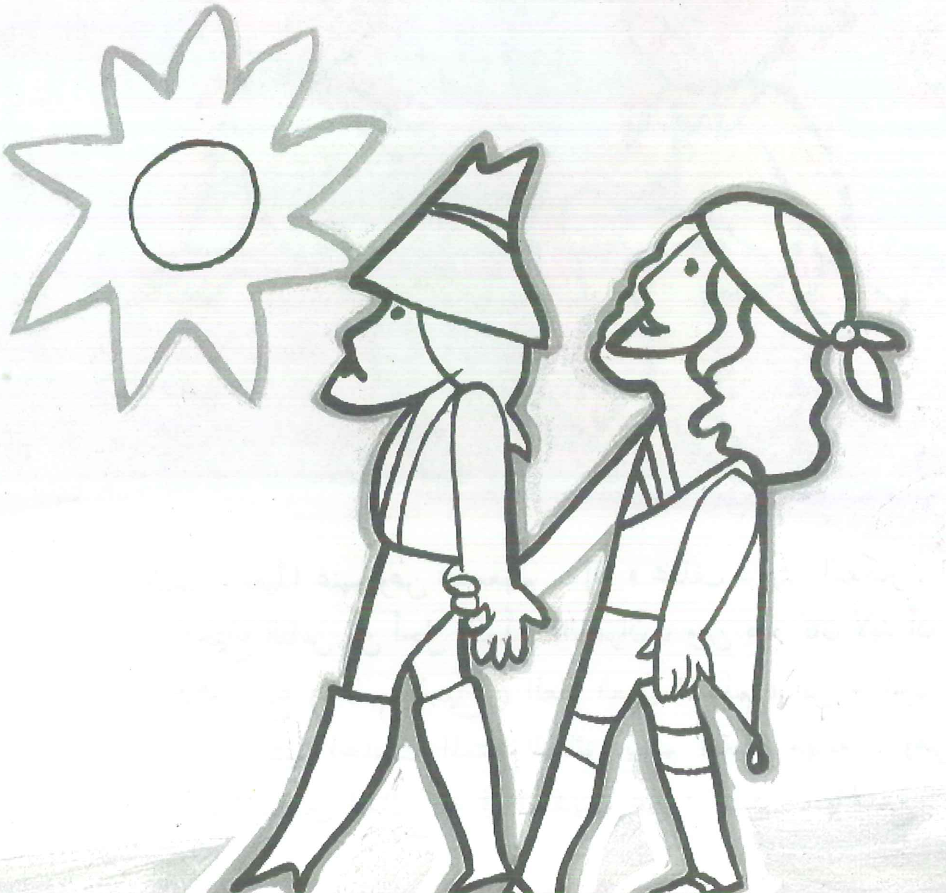
قال « ديفو » : ماذا لو اقترحت عليك كتابة جزء ثانٍ لكتابك الآن ؟



- لا أظننى أستطيع ذلك .

عقب « كروزو » : كثيرون قلدوا أستاذى « ديفو » فى كتابه حكايات عن إنسان وحيد فى جزيرة : السويسرى كتب عائلة روبنسون السويسرية .. وكتب « أسكوت أودول » قصه الدولفين الأزرق .. وهناك قصة « أرمسترونج » عن القلب الشجاع .. كل هذه قصص سارت على نفس المنوال ، فلماذا لا تجرب قصة حديثة ؟

ابتسم ابن طفيل : أنا « مؤلف » و « مبتكر » و « مبدع » ، قدمت عملى وانتهى الأمر ، ولا أضيق بأن يسير الآخرون على منوالى ، لكننى لا أحب أن أتبعهم .



امتد الحديث بين الحاضرين : بين ابن طفيل ، ومعه حى بن يقظان ، ثم آسال ..

ودانييل ديفو ، ومعه روبنسون كروزو ، ثم جمعة .

وهو حديث طويل طويل ، كان من الممكن أن يمتد لساعات ، وساعات .. إنهم يتحدثون عن الإنسان ، فردًا وحيدًا منعزلًا عن بقية



البشر ، بعيدًا عنهم وعن مجتمعهم .. إنه « مختلف » ويثير التفكير ، التفكير فى اجتماع الناس من أجل التَّمَدُّنِ والعمران ، ومن هنا كان لابد أن يتطرق الكلام لمبدع (علم الاجتماع) العالم العربى المسلم « ابن خلدون » .

واخْتُتِمَ الحديث الممتع الشائق بينهم بحقيقة مهمة ، وهى سَبْقُ العرب المسلمين العالم كله فى الحديث عن : الفرد ، والمجتمع .